

الأواني الفخارية فيما قبل التاريخ في الشرق الأدنى القديم دراسة مقارنة في الصناعة والزخرفة*

مقدمة عامة

• تعتبر صناعة الأواني الفخارية من أقدم الصناعات والفنون التي مارسها الإنسان في شتى بقاع العالم القديم، ويرجع تاريخها في معظم الأحيان إلى العصور النيوليتية . وقد كان المفهوم السائد أن تلك الصناعة ارتبطت غالباً بحياة الاستقرار وممارسة الزراعة وتفكير الإنسان في صنع أواني بدلاً من تلك المصنوعة من الأغصان النباتية المجذولة أو من الدوم وكذا من الجلود أو بيض النعام لكي يخزن بها الفائض عن حاجته من الحبوب والمواد الغذائية فضلاً عن استخدامها في الطهي. إلا أن الاكتشافات قد أثبتت أن الإنسان الرحال ربما منذ نهاية العصر الحجري القديم الأعلى وخلال العصر الحجري الوسيط قد استخدم طفلة الصحراء ربما مع مياه الآبار والبحيرات وخلافه في صنع أواني فخارية بدائية ربما لحفظ حاجياته وحملها أثناء تنقله من مكان إلى آخر .^١

♦ ويبدو أن الوصول لصناعة الفخار خلال العصر الحجري الحديث قد أتت عن طريق الحريق بالصدفة لبعض السلال التي كانت تبطن بالطمي من الداخل لتقويتها وسد مسامها، بحيث اكتشف الإنسان صلابة شكل الطمي بعد حرقه وتبخّر الماء الذي كان متحداً به فبدأ يحاول أن يصنع الفخار عن قصد.

♦ وكانت الأواني الفخارية تصنع بشكل عام في بادئ الأمر من مادة خشنة غير مصقولة وريئة الحرق، ثم تطورت بعد ذلك من خلال التقنية في صنعها ومادتها وطريقة حرقها وتطور أنواع زخارفها، فضلاً عن النقلة من الصناعة اليدوية إلى عجلة أو دولاب الفخار. هذا وتشتمل عملية صنع الإناء الفخاري على عدة خطوات أساسية مثل عجن الطين بما يضاف عليه من مواد نباتية أو رمال لتقويته، وتشكيل الإناء، والزخرفة، وأخيراً الحرق.^٢

* د. احمد سعيد /كلية الآثار -جامعة القاهرة .

^١ انظر A.J.Arkell, "Das Niltal" in Fischer Weltgeschichte/ I

Vorgeschichte, 1992, 188-189. (قارن مثلاً فخار الخرطوم الذي يرجع إلى العصر الحجري

الوسيط)

^٢ انظر لمياء الحديدي ، دراسة مقارنة بين النقوش الصخرية في مصر والنوبة السفلى ورسوم

الفخار في المرحلة النقادية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠ . ٤١ .

♦ ويصنع الفخار عادة من الصلصال الذي نتج عن نفتت الصخور النارية والجرانيتية التي يدخل في تكوينها الفلسبار الذي يتفتت كيميائياً نتيجة لتفاعله مع ثاني أكسيد الكربون والماء ولاسيما المناطق المغطاة بالأغذية النباتية، حيث ترتفع نسبة ثاني أكسيد الكربون في الجو، ويؤدي ذلك التفاعل إلى ظهور مواد صلصالية مكونة من سليكات الألمنيوم وأكسيد الحديد . إلا انه بشكل عام فإن الطمي أو الصلصال يتكون من عدة عناصر منها مركبات الحديد والرمل والمواد العضوية و كربونات الكالسيوم بجانب الماء بطبيعة الحال . ويتحدد نوع الصلصال ومدى جودته تبعاً لنسبة هذه المواد بداخله . كما أن لون الفخار نفسه يختلف طبقاً لاختلاف نوع الطفلة المستخدمة في صناعته ومدى ما بها من شوائب أو نقائها منها فضلاً عن طريقة وظروف الحرق^٣.

♦ وكان صانع الفخار يبدأ عادة بتتقية الطمي من الشوائب العالقة به ثم يعجنه بالماء ويضيف إليه بعض المواد الأخرى التي تقلل من لزوجته وتزيد من تماسكه ثم تشكل الأنية وتسوى سطحها بالأيدي المبللة حتى تقلل سعة مسامها وبعد ذلك تجفف في حرارة الشمس قبل حرقها حتى لا تؤثر حرارة النار على شكل عجنتها الطريقة أو تساعد بسرعة على تبخير مائها فتتشقق جوانبها^٤.

♦ وخلال المرحلة المخصصة للتجفيف يمكن إدخال بعض الأعمال المتممة مثل ضم المقابض أو عمل زخرفة معينة ، ويرى البعض أن عملية تلوين الفخار تتم بغمس الإناء في مغطس ارضي فخاري ، أما الصقل فيتم بواسطة قبضة من الألياف والتنعيم بواسطة كتلة خشبية^٥.

♦ لقد اعتبر ابتكار الأواني الفخارية أحد أهم السمات الحضارية للمجتمعات الزراعية فكانت تلك الأواني .هي أوضح الدلالات الأثرية فيما قبل التاريخ التي يمكن من خلالها التمييز بين الحضارات المختلفة وتحديد تاريخها وهويتها وأماكن انتشارها .فقد ابتكرت كل حضارة أشكالاً خاصة لفخارها، تطورت حتى أصبحت طرازاً مميزاً لكل حضارة ، وأصبح الفخار من الشواهد الأثرية الهامة التي يمكن الاستفادة منها في تأريخ موقع أثري أو تتبع تطور حضارة معينة، كما فعل بتري في حضارات ما قبل الأسرات في مصر . وأمكن من خلال دراسة الفخار وزخارفه

^٣ انظر الفريد لويس ، المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة زكي اسكندر ومحمد زكريا غنيم ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ٥٩٦ وما بعدها ؛ لمياء الحديدي ، المرجع السابق ، ٤١ .

^٤ انظر عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وأثارها ، ج ١ ، القاهرة ١٩٩٢ ، ٨٩ ؛

^٥ جان كلود مارجرول ، السكان القدماء ما بين النهرين وسورية الشمالية ، ترجمة سالم سليمان العيسى ، دمشق ، ١٩٩٩ ، ١٨٦ .

التعرف على درجة استقرار الأهالي داخل قراهم والمواد الغذائية التي كانت تشكل قوتهم ، فضلا عن التقنيات الجديدة و تطور أساليبها.

• كما تم دراسة الفخار لمعرفة الصلات المتبادلة بين حضارات ما قبل التاريخ وتقدير مدى انتشار سمات الأنواع المختلفة مثل فخار العبيد في الشرق الأدنى فيما قبل التاريخ أو فخار كريت خلال العصور التاريخية.

• وننتقل الآن لدراسة واستعراض فخار ما قبل التاريخ في بلاد الشرق الأدنى على النحو التالي :-

أولا : بلاد الشام :-

• لقد استطاع الإنسان في بلاد الشام إبان العصر الحجري الوسيط أن يتكيف مع البيئة المحيطة به من مناخ يجمع ما بين الدفء والبرودة وغابات ساعدته على جمع طعامه من الثمار والنباتات الصالحة للأكل وكذا على الصيد البري بما فيها من حيوانات وانهار استغلها في صيد الأسماك^٦ ومشى في خطى سريعة نحو التقدم الحضاري مارا بالحضارات المختلفة مثل الكباريه^٧ بجبل الكرمل في فلسطين. والحضارة الزرزيونية.

• وانتقل الإنسان إلى حقبة ما قبل العصر الحجري ٩٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ ق.م حيث ظهرت حضارات متنوعة وبدايات للاستقرار المؤقت وظهرت سمات الحضارة النطوفية^٨ التي تمثلت في منطقة الكوم وكليلية في الشمال و في قرية عين الملاحه ومنطقة وادي فلاح بمساكنها^٩ ومدافنها^{١٠} وصناعاتها الحجرية التي

^٦ فارن جيمس ميلارت ، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى ، ترجمة محمد طلب ، دمشق ، ١٩٩٠ ، ١٧ .

^٧ سلطان محيسن ، بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ / المزارعون الأوائل ، دمشق ، ١٩٩٤ ، ١٠ ما بعدها .

^٨ جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٣٠ وما بعدها . ، سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ١٥ وما بعدها ؛ جاك كوفان ، القرى الأولى في بلاد الشام ، ترجمة الياس مرقص ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ٥٥ وما بعدها .

^٩ احمد سعيد ، "المنشآت المدنية فيما قبل التاريخ في الشرق الأدنى" في دراسات في آثار الوطن العربي ٢/كتاب المؤتمر الرابع للآثارين العرب /الندوة العلمية الثالثة، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ٥ .

^{١٠} احمد سعيد ، "عقائد الدفن وعبادة الأسلاف فيما قبل التاريخ في الشرق الأدنى" في دراسات في آثار الوطن العربي ٢/كتاب الملتقى الثالث للآثارين العرب /الندوة العلمية الثانية، ج ١ القاهرة ، ٨ ، ٢٠٠٠ .

يهنأ منها بعض الأواني المزخرفة التي قد تعتبر أقدم زخرفة لأواني في الشرق الأدنى^{١١}.

♦ وتدخل بلاد الشام بعد ذلك عصر ما قبل الفخار (أ) وتتميز خلاله حضارة أريحا بسامات استقرار أكثر تقدماً وتطور في الأعمال الزراعية وتدجين الحيوانات وتخزين الحبوب.

♦ وتنتشر بعد ذلك في بلاد الشام سمات فترة أكثر تحضراً وتطوراً وهي فترة ما قبل الفخار (ب) حيث تطور كل من فن العمارة والصناعات الحجرية وصناعة السلال المجدولة مثلما في يبرود تل الشيخ والبيضا وأريحا وتل المريط وتل اسود وتل الغريفه و جارمو الخ^{١٢}.

♦ وفي جارمو على الحدود السورية العراقية تظهر أقدم أنواع الفخار في أعلى طبقات ثلاث والذي يطلق عليه فخار جرمو المدهون أو المطلي^{١٣} والذي انتشر حتى إيران والأناضول ويؤرخ بنهايات القرن الثامن وبداية القرن السابع ق.م. وستتحدث عنه فيما بعد.

♦ وفي منطقة المريط التي تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات كشف عن كسرات فخارية يرجعها البعض للآلף الثامن ق.م.^{١٤} (لوحة ١ شكل أ) حيث ارتبطت الأواني الفخارية البدائية في ذلك الموقع بعملية الطبخ والاستعمالات اليومية وقد كشف بالفعل عن ما يشير إلى صحن كبير ووعائين.

♦ ومن منتصف الآلף السابع ق.م استخدمت الأواني الفخارية في الجزيرة السورية كمل أثبتت الأدلة في تل اسود و حوض البليخ وتل المنبطح وتل البغيلات وغيرها^{١٥} كما ظهر الفخار في الموقع المسمى "سكحة" شمال سوريا^{١٦}. وأيضاً في تل بقرص عند مصب الخابور كشف عن بعض الأواني الفخارية المزخرفة باللون الأحمر بما يمثل حراشف السمك^{١٨}.

^{١١} جيمس ميلارت ن المرجع السابق ، ٣٨ .

^{١٢} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٥٢ . ؛ سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٤٧ وما بعدها .

^{١٣} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٦٥ .

^{١٤} جان كلود مارجران ، المرجع السابق ، ١٨٢ .

^{١٥} تغريد جعفر الهاشمي و حسن حسين عكلا ، الإنسان تجليات الأزمنة / تاريخ وحضارة بلاد

الرافدين الجزيرة السورية ، دمشق ، ١٩٩٩ ، ٨٣ .

^{١٦} سلطان محيسن ن المرجع السابق ، ٨٥ .

^{١٧} تقي الدباغ ، "الفخار القديم" سومر ، المجلد ٢٠ (١٩٦٤) ٨٧ وما بعدها .

^{١٨} تغريد جعفر الهاشمي و حسن حسين عكلا ، المرجع السابق ، ٩٢ .

• ويبدأ مع صناعة الأواني الفخارية بشكل ثابت في بلاد الشام العصر الحجري الحديث الفخاري منذ بداية الألف السادس ق.م^{١٩} ، حيث اعتبر ابتكار الأواني الفخارية أحد أهم السمات الحضارية للمجتمعات الزراعية ، فقد كانت الأواني الفخارية . هي أوضح الدلالات الأثرية التي يمكن من خلالها التمييز بين الحضارات المختلفة وتحديد تاريخها وهويتها وأماكن انتشارها ، بل ويمكن من خلال دراسة الفخار وزخارفه التعرف على درجة استقرار الأهالي داخل قراهم والمواد الغذائية التي كانت تشكل قوتهم والتطور التكنولوجي والتقنيات الجديدة وكذا التطور العقائدي وأخيرا السمات الفنية وتطور أساليبها .

• وفي منطقة "جبيل" تظهر الأواني المصقولة والمزخرفة باستخدام الاصداف البحرية^{٢٠} .

• ويظهر نفس نوع الفخار المحلي في موقع العمق (أ) المؤرخ بمطلع الألف السادس ق.م بأشكال مختلفة بينما زخرفت باللون الأحمر كما شاعت قليلا أنواع الفخار المحروق^{٢١} وكان الفخار يصنع باليد ويصل وألوانه قاتمة وانتشر نوعه خلال

العصر الفخاري كله وأطلق عليه "الفخار القاتم المصقول - Dark Face Burnished Ware"^{٢٢} وتعتبر الجرار والكؤوس والأباريق من أهم أنواع الأواني خلال هذه المرحلة . وفي أحد أشكال التطور في نفس المنطقة ظهر الفخار المغطي بطبقة من الجص الكلسي من الداخل والخارج ويرى البعض أن هذا التطور ربما يكون قد اخذ من تقنيات قديمة ارتبطت بالأواني الخشبية والأواني من السلال المجدولة^{٢٣} .

• وفي راس الشمرة تميز الفخار باللون الأحمر بينما ظهر بعضه باللون البني واللون الأسود، وكانت الأشكال كروية .

• وفي فلسطين ظهرت اقدم الأواني الفخارية في شرق بحيرة الحولة في حوض الأردن عند موقع "هاجوشيرم" وكانت من أنواع خشنة وبسيطة^{٢٤} .

• وفخار أريحا الذي يعود لتلك الفترة كان يخلط إما بالتين للتحسين أو بحبيبات من الحجر والصوان^{٢٥} .

^{١٩} يربط العلماء أيضا تلك الفترة بمسي العصر النحاسي المتأخر والعصر البرنزوي المبكر وبالحضارة الغسولية في فلسطين . انظر وليم ف . اولبيريت ، آثار فلسطين ، ترجمة ركي اسكندر

ومحمد عبد القادر ، القاهرة ١٩٧١ ، ٦٩ .

^{٢٠} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٧٨ .

^{٢١} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٧٩ .

^{٢٢} سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٨٢ .

^{٢٣} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٧٩ .

^{٢٤} سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٨٧ .

- ♦ ظهر في بلاد الشام نوع من الأواني المصنوعة من عجينة غير فخارية ، تميز في مكونات طينته باستخدام المواد الكلسية أو الحجر الجيري الأبيض الممزوج بالصخر الرملي والقش مما أضفى سماكة غليظة في جدران الأواني^{٢٦} وقد عرفت بالأواني البيضاء وانتشرت في البادية السورية في منطقة الكوم وتدمر^{٢٧}.
- ♦ وفي منطقة طرابلس وصيدا وكذا تل أبو زوريق وتل كبرى بفلسطين وتل الشيخ علي الطبقة الثانية وتل الرماد قرب دمشق (لوحة ١ شكل ب) ، ظهر نوع من الفخار ذو الحواف المصقولة واللون الوردي والأصفر الضارب إلى الحمرة والبرتقالي والذي تميز بتنوع زخرفته من نوع الخطوط الأفقية وشكل سمك السردين (الرنكة) ومحاكاة السلالات النباتية المجدولة . كما كشف عن نوع من الفخار المصقول ذي اللون الرمادي والبني^{٢٨}
- ♦ والى الحضارة اليرموكية في وادي الأردن ينتسب نوع آخر متطور من الفخار على هيئة جرار ذات أعناق ومقابض وقواعد مستوية ، مدهون بطبقة رقيقة من اللون الأحمر ومزخرف بأشكال على هيئة سمك السردين كما ظهر في أريحا ووادي رباح^{٢٩} وكان أهل تلك الحضارة قد بدءوا صناعة أوانيهم بشكل خشن وبسيط ثم أصبحت أفضل خلال مرحلتهم الحضارية الثانية حيث تأثرت بحضارة منطقة جيبيل وأصبح الفخار أكثر تنوعا وزخرفت أسطحه ولونت^{٣٠} (لوحة ١ شكل ج) .
- ♦ وفي طبقة سهل العمق (ب) وكذا في رأس شمرا تطور الفخار ذو اللون الواحد إلى أواني مزخرفة بأشكال هندسية على أرضية فاتحة اللون ومصقولة . وكانت الألوان الحمراء هي الشائعة . وان اعتبر هذا النوع أقل جودة من فخار الأناضول وإيران في نفس المرحلة^{٣١} . وقد اتسع استخدام الأواني الفخارية وتباينت هياتها . وتناقصت الأواني المصقولة ذات اللون الغامق وانتقلت إلى السواحل الجنوبية
- ♦ وفي مرحلة العمق الثالثة (العمق س) المؤرخة بنهاية الألف السادسة ق.م ولاسيما في منطقة تل الجديدة ظهر الفخار المتعدد الزخارف والألوان (لوحة ٢ شكل أ) وكذا في مواقع سوريا الشمالية والتي كانت متأثرة بسمات حضارية عراقية، كما

^{٢٥} وليم ف . اولبيريت ، المرجع السابق ، ٧٠ .

^{٢٦} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٨٠ .

^{٢٧} سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٨٧ .

^{٢٨} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٨٠ .

^{٢٩} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٨١ .

^{٣٠} سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٨٨ .

^{٣١} جيمس ميلارت ، المرجع السابق ، ٨٢-٨٣ .

أثبتت الأدلة في رأس الشمرة ، وتل يونس قرب كركميش وحماه (الطبقة L) . وقد ظهر نوع الفخار غير الغامق .^{٣٢}

• ارتبطت منطقة تل العرربية بسوريا بالكشف عن الأواني الفخارية التي ترجع لفترة وسامات حضارة حلف بأشكالها المختلفة وزخارفها المميزة^{٣٣} كما سنرى فيما بعد .

• وبداية الألف الخامس ق.م مرحلة العمق (ي) عادت الأواني الفخارية إلى النوع الغامق المصقول ذي اللون الأحمر وتراجعت أنواع الفخار المزخرف ذي التأثير العراقي المنتمي لحضارة حلف^{٣٤}

• وعند نهاية الألف الخامس ق.م تأثر الفخار في بلاد الشام بسامات حضارة العبيد مثلما ظهر في مواقع العمق (E) و رأس الشمرة الطبقات (B C) ومرحلة النيوليت الأخير في جبيل^{٣٥} . وكذلك كشف عن كسرات فخارية تعود لفترة العبيد في منطقة تل الشيخ حسن بسوريا^{٣٦} . وفي منطقة تل الخويرة التي تقع في منتصف المسافة بين منابع الخابور والبلخ، كشف عن أواني وأغطية أواني ترجع لنفس الفترة .

• في منطقة تل افيش شمال سوريا عند سهل إدب كشف عن منطقة سكنية ترجع لمنتصف الألف الرابع ق.م عثر بها على اليد من الكسرات الفخارية (لوحة ٢ شكل ب) دلت سماتها وخواصها على مدى التواصل بين مناطق شمال سوريا وجنوب الأناضول والعراق . اختلطت عجينة الفخار بالتبن لتقويتها وتراوحت ألوانها بين الأحمر البرتقالي والبيج والأخضر الرملي ومعظمها غي مصقول فيما عدا الأواني التي على شكل السلطانيات أو الزبديات . هذا فضلا عن الأواني الفخارية التي ظهرت في هذا الموقع وترجع لفخار العبيد .^{٣٧}

• وبمنطقة بئر سبع بفلسطين وفي الطبقات الحضارية من ١٨ إلى ١٦ والمؤرخة بحوالي ٣٤٠٠ الى ٣٢٠٠ ق.م كشف عن فخار رمادي مصقول واسود مصقول.^{٣٨}

• وفي فلسطين أيضا ظهرت الأوعية الفخارية التي اتخذت أشكال متعددة واستخدمت لدفن عظام الموتى (لوحة ٣ شكل أ) .^{٣٩}

^{٣٢} سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٨٣-٨٤ .

^{٣٣} تغريد جعفر الهاشمي و حسن حسين عكلا ، المرجع السابق ، ١٠٩-١١٠ .

^{٣٤} سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٨٥ .

^{٣٥} سلطان محيسن ، المرجع السابق ، ٨٥ .

^{٣٦} تغريد جعفر الهاشمي و حسن حسين عكلا ، المرجع السابق ، ٩٦ .

^{٣٧} ستيفانيا ماتسوني ، " تل اقيس والمنطقة المحاورة له في العصر الحجري النحاسي المتأخر " تعريب إحسان شبيط ، في

الحواليات العربية الأثرية السورية المجلد الثالث والأربعون (١٩٩٩) ٢٧٥ وما بعدها .

^{٣٨} وليم ف . اولبيريت ، المرجع السابق ، ٧٥ .

